الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع

بلغت الامبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها على عهد الأمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨ م)، فصار حدها الشمالى عند السور الذى شيده ذلك الأمبراطور فى بريطانيا وعرف باسمه Hadrian's wall، وقد امتد ذلك السور فوق مرتفعات نورثمبريا، من البحر إلى البحر فى عرض الجزيرة، عبر الجهات الشمالية من مضيق السلواى Solway عند مدينة كارليل Carlisle الحالية غرباً، إلى مصب نهر التاين Tyne عند مدينة نيوكاسل الحالية شرقاً، ليكون حداً نهائياً بين بريطانيا الرومانية واسكتلنده. ثم تمتد الحدود الشمالية من البحر الشمالى حتى البحر الأسود، متبعة خطوط نهرى الراين والدانوب، وهى حدود رسمتها الطبيعة. وقد شمل النفوذ السياسى للأمبراطورية كل آسيا الصغرى، وشريط يمتد على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، يشمل الشام ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش. ويمكن القول أن أراضى الأمبراطورية امتدت حول البحر المتوسط مركز العالم القديم، ذلك البحر الذى لا يدخل فى نطاقه – كما يرى الجغرافيون – مصر العليا وشمال شرقى أسبانيا وشمال إقليم الغال (فرنسا الحالية) والمناطق الممتدة بحذاء الدانوب(١). غير أن نفوذ الأمبراطورية من الناحية الواقعية، لم يقتصر على البلاد الواقعة داخل حدودها السياسية، بل امتد حتى بلغ فارس والهند، وتطرق إلى بلاد النوبة والسودان، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب(٢).

ويعتبر القرنان الأول والثانى فى حياة الأمبراطورية الرومانية – بوجه عام – قرنى ازدهار ورقى سلمى، إذ حدثت فيهما عملية صبغ غرب أوربا بالصبغة الرومانية، حتى أننا فى القرن الرابع نجد صورة مغايرة تماماً لما كان مألوفاً فى القرنين الأولين، ذلك أن الأمبراطورية كانت قد مرت بفوضى القرن الثالث

---

(١) Painter (S.), A History of the Middle Ages. 284-1500., (London, 1964), pp. 3 - 4.; Rainer (Robert M.), A Concise History of Britain., (London, 1965), p. 5., Hay (Denis), The Medieval Centuries., (London, 1974), p. 3.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، جزءان، (القاهرة ١٩٧٥)، جـ ١ ص ١١ – ١٢.

واضطراباته، حتى تغير شكلها، ولم تكد تتماسك إلا بفضل الجهود اليائسة للأمبراطورين دقلديانوس وقنسطنطين[١]. وحتى القرن الثانى أيضاً، تمتعت الأمبراطورية بالأمن والسلام، ولم يعكر صفوها إلا بعض الإغارات الخفيفة التى كان يقوم بها جيران الأمبراطورية على حدودها. ففى الشرق والجنوب الشرقى، كان البربر فى المغرب والقبائل البدوية فى الصحراء مصدر إزعاج من وقت لآخر، ولكنهم لم يشكلوا خطراً فعالاً، إلى أن جاء الإسلام ووحد بينها، وأمدها بروح من عنده تخالف ما كانت عليه من قبل. كذلك كانت شعوب البكت Picts والسكوت Scots فى بريطانيا، تعبر سور هادريان أحياناً، وتقوم بإحداث القلاقل وإزعاج الحاميات الرومانية، ولكن الامبراطورية كانت بعيدة عن أية أخطار حقيقية تأتى من ناحيتهم. أما فى الشمال، فيما وراء نهرى الراين والدانوب، فقد كان الجرمان يمثلون الخطر الأعظم، ذلك أن التصاقهم بحدود الأمبراطورية، فتح أعينهم على ما احتوته ولايات تلك الأمبراطورية من ثراء ورخاء، الأمر الذى جعلهم يقومون بإغارات بغية الحصول على غنائم مجزية وخيرات وفيرة. وهنا نلاحظ أن الحكومة الرومانية كانت قادرة على حماية حدودها، ورد غارات الجرمان بالقوة أحياناً، وبالطرق الدبلوماسية أحياناً أخرى. فقد جرى عقد اتفاقيات بين الحكومة الرومانية وزعماء القبائل الجرمانية المجاورة لحدود الأمبراطورية، نصت على أن تقوم روما بحماية تلك القبائل من جيرانها، فى مقابل أن تقوم تلك القبائل بمنع رعاياها من الإغارة على أراضى الأمبراطورية. وعلى أية حال، فقد قامت القوات الرومانية المعسكرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب فى القرنين الأول والثانى بواجباتها لكبح جماح الغزاة المحليين، سواء فى صورة شن هجوم واسع أو قيادة حملات تأديبية[٢]. ولكن الأمر اختلف عنه منذ السنوات الأخيرة للقرن الثانى، وابتداء من القرن الثالث، وهو ما سنعالجه بعد قليل.

وعلى الرغم من الحروب الدائرة هنا وهناك على امتداد حدود الأمبراطورية، إلا أن السلام – كما ذكرنا – ساد بقاعها الواسعة بنظام الطرق الواسعة الرائعة

---

(١) Barrow (R.H.), The Romans., (Britain, 1975), pp. 163-164.

(٢) Jones (A.H.M.), The Decline World., (London, 1975), pp. 10-11.

الذى ابتدعته العبقرية الرومانية، وحد بين عواصم الأمبراطورية ومدنها، من بريطانيا وأسبانيا فى الغرب، حتى نهر الفرات فى الشرق. كذلك قامت المواصلات البحرية بدور حضارى لا يقل شأناً عن الدور الذى قامت به الطرق البرية، فقد شهد البحر المتوسط حركة ملاحية دائبة، ومياهه التى لم تعرف القراصنة آنذاك، كان لها الفضل فى توحيد المدن الكبيرة القائمة على شواطئه. ولما كان الأمن منتشراً فى جميع أنحاء الأمبراطورية، صار السفر ميسراً للمواطنين، طلباً للعمل أو للصحة أو للمتعة. ومما ساعد على إتاحة السفر وتسهيله اللغة الشائعة فى الأمبراطورية، وتوفر العملة الدولية الصحيحة، وحماية القوانين. وهى أمور لم تعرفها الأمبراطورية فى القرون التالية. وليس أدل على ذلك من أن المرء كان بوسعه السفر من الفرات إلى أسبانيا، مستخدماً لغة واحدة مشتركة Lingua - Franca يمكنه التفاهم بها فى كل مكان. وصار من المستطاع سماع من يتحدث باللغة اليونانية فى شوارع المدن التجارية، مثل روما ومرسيليا والاسكندرية وبوردو، وعلى ضفاف أنهار النيل والعاصى ودجلة(١).

ومن السمات المميزة للأمبراطورية الرومانية، اختلافها عن أية أمبراطورية أخرى شاهدها العالم القديم. فمنذ اتسعت دائرة نفوذ الرومان، دخلت فى حوزتهم شعوب وأجناس متباينة، مارست أنظمتها الاجتماعية ومعتقداتها الدينية ولغاتها وتقاليدها وقوانينها، دون تدخل من قبل الحكومة الرومانية، طالما أن تلك المعتقدات والنظم لا تتعارض مع سلامة الأمبراطورية وأمنها من ناحية، ومادام السكان يدفعون الضرائب المقدرة عليهم من ناحية أخرى. وبروح المرونة الكافية التى أظهرها الرومان تجاه الشعوب الخاضعة لهم، فضلاً عن الوحدة الحضارية والحكومة المنظمة التى أعطوها لجميع العالم المتمدن، لم يعرفوا العنصرية آفة العصور القديمة. وفى الأيام الأخيرة من حياة الأمبراطورية، اعتبر سكان الولايات البعيدة «رومانيين» مثل الذين ولدوا فى روما نفسها، وبذلك ألغيت

---

(١) Lindsay (T.M.), "The Triumph of Christianity", in Camb. Med. Hist., Vol. I., pp. 87-88.

الفوارق البغيضة، وصارت جميع الوظائف، بما فيها المنصب الأمبراطوري نفسه، ميسرة لجميع المواطنين شريطة استخدام اللغة اللاتينية فى الأعمال الرسمية والإدارات الحكومية والمعاملات العامة(١).

ولكن أحوال الأمبراطورية الرومانية أصابتها يد التبديل والتغيير فى القرن الثالث، بسبب ما أصابها من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما أدى فى النهاية إلى القضاء على مجدها الزاهر ومكانتها العالمية. وأيسر ما يقال فى هذا الصدد أن الرومان فى القرن الثالث كانوا يخدعون أنفسهم، صحيح أن البناء الخارجى لمجتمعهم ظل قائماً إلى حد ما، إلا أن روح الأمبراطورية كانت قد ماتت حقيقة من الداخل(٢). وبمعنى آخر يمكن القول أن المشاكل العديدة التى ألمت بالأمبراطورية ابتداء من ذلك القرن وتضافرت ضدها، ساعدت فى المقابل على إيجاد ثغرة استطاعت القبائل الجرمانية والمتبربرة أن تنفذ منها إلى قلب الأمبراطورية، وتعمل على سقوطها فى القرن الخامس.

الحالة الاقتصادية :

واكب فتوحات الأمبراطورية واتساع أملاكها فى أيامها الأولى تدفق الثروات الهائلة عليها، وكان لذلك أثره على ميل الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى إلى الترف والرفاهية والإسراف الشديد، والتطلع إلى الكماليات، وتكالب تلك الطبقات – بصفة خاصة – على معدنى الذهب والفضة، اللذين ظهرا فى صورة أدوات للزينة أو أوان وصحاف. ولا ريب أن استغلال الذهب والفضة بهذه الوسيلة أدى إلى تجميدهما واستبعادهما من سوق التداول؛ وظل الوضع على ذلك، حتى بعد أن توقفت الفتوحات، وأضحى لزاماً على الأمبراطورية أن تحافظ على حدودها

---

(١) Hay, op. cit., p. 4.

(٢) Sinnigen (William G.) and Boak (E.R.), A Hist. of Rome To A.D. 565., Six edition, (U.S.A., 1977), p. 395.

ضد هجمات وإغارات القبائل الجرمانية خلال القرن الثالث، فى الوقت الذى قل فيه الذهب ونضب معينه، ولم تحاول الحكومة البحث عن مصادر جديدة للمعادن الثمينة، تحل محل المصادر المألوفة فى أيام الأمبراطورية الأولى[١]. ومن الواضح أن ما جرى من نفقات باهظة حملت الأمبراطورية فوق ما لا تطيق، وألقت على كاهل الخزانة عبئاً جسيماً، فقصور الأباطرة الرائعة الضخمة الباذخة، والحشد الهائل من موظفى القصور والخدم والحراس، ونفقات الجيش، وانتشار الرشوة والفساد، وقسوة الموظفين على أهالى الولايات التابعة للامبراطورية، وثقل الضرائب المفروضة، وأعباء الحروب الأهلية، كل ذلك يفسر لنا أسباب المتاعب الاقتصادية التى كانت تعانيها الأمبراطورية إبان القرن الثالث. فأصيبت التجارة بالأضرار وتوقفت مسيرتها، ولم تعد طرق البحر المتوسط العظيمة تموج بالأساطيل التجارية الرومانية، بعد أن صارت وكراً يعج بقراصنة البحار. والطرق الرومانية البرية التى كانت دائماً دليلاً على عظمة الرومان وإعجازهم الهندسى، أضحت أطلالاً غير آمنة، لا تخلو من قطاع الطرق، وتبعث الأسى فى النفس لمجتمع عرف تجارة عظيمة يوماً ما[٢].

وقد أدى استمرار الانهيار الاقتصادى إلى حدوث آثار سيئة على قيمة العملة النقدية المتداولة فى ولايات الأمبراطورية. فالغزوات الجرمانية التى تعرضت لها الأمبراطورية فى القرن الثالث، بما تخللها من نهب المزارع وإحراقها، وإفساد المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضى الزراعية خراباً بلقعا، والحاجة الماسة إلى المال لدفع رواتب الجند، أجبرت الأباطرة على إنقاص قيمة العملة المتداولة. وكان نصيب الدينار الفضى denarius فى التدهور المستمر أكثر من الأوريوس الذهبى aureus وغيره من العملات النقدية الأخرى. ويلاحظ أن قيمة العملات الفضية أخذت فى الهبوط المستمر منذ عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م)، الذى أنقص الدينار إلى خمسة وسبعين فى

(١) Kent (J.P.C.) & Painter (K.S.), Wealth of the Roman World. Gold and Silver. A.D. 300-700., (British Museum, 1977), p. 15.

(٢) Hay, op. cit., p. 5.; Painter, op. cit., pp. 8 - 9.

المائة من الوحدات الفضية، وبلغ مقدار النقص فى قيمته خمسين فى المائة من الوحدات الفضية تحت حكم سبتميوس سفيروس (١٩٣ - ٢١١م)، ثم واصل الدينار انخفاض قيمته، حتى صار فى عهد جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨م) عملة نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة بلغت خمسة فى المائة من الوحدات الفضية. وعلاوة على ذلك، كان السستريوس البرونزى Sestertius (وقيمته ربع دينار) لايزال يصدر حتى سنة ٢٧٠ م، ثم اختفى من التداول بسبب الارتفاع الكبير فى الأسعار(١). والأمر الذى لا خلاف فيه أن إنقاص العملة، وما صاحبها من ارتفاع كبير فى الأسعار، أديا إلى «التضخم» inflation. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض من يمتلك عملة فضية خالصة التعامل مع العملات المخلوطة الشائبة، فأدى ذلك إلى اختفاء المعادن الثمينة من التداول، فى وقت كانت الحاجة أشد ما تكون إليها. وفى مثل تلك الأحوال السيئة التى تدهورت خلالها العملة النقدية، أضربت الأسواق التجارية، ورفع التجار أسعار سلعهم. وتعتبر مزاولة التجارة فى مثل ذلك المناخ أمراً متعذراً، فبعد أن كانت قائمة على قدم وساق فى ولايات الأمبراطورية، لا تقف فى سبيلها أية عقبات أو حواجز، وصلت إلى درجة بالغة السوء، فاختفى الانتاج الكبير، وحل محله الانتاج المحلى الذى يتم تصريفه محلياً؛ وفى غياب عملة مستقرة، حلت المقايضة فى المعاملات التجارية بين الأهالى، وهى طريقة لا تفى بالغرض المنشود(٢). ويمكن القول أن ما عرفته الأمبراطورية من ازدهار تجارى فى القرن الثانى، لم يعد بإمكانها استعادته فى معظم أنحاء الغرب الأوربى، وإن كان هناك استثناء وحيد نلمسه فى الأقاليم البعيدة، مثل بريطانيا، التى وصلت تجارتها إلى مرحلة عالية من التطور فى القرنين الثالث والرابع(٣).

---

(١) Charlesworth (M.P.), The Roman Empire., (Great Britain, 1961), pp. 132-133., على الغمراوى: دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. جزءان (القاهرة ١٩٧٥)، جـ١ ص٨٠-٨١

(٢) Robirson (Cyril E.), A Hist. of Europe: Ancient & Medieval., (U.S.A., 1920), pp. 401-402.

(٣) Cary (M.) & Wilson (John), A Shorter Hist. of Rome., (London, 1963), p. 342; Grant (Michael), The World of Rome., (London, 1960), p. 67.

وبطبيعة الحال، انعكس التدهور الاقتصادى على الزراعة أيضاً، وكما ذكرنا من قبل، أصبحت حدود الأمبراطورية فى القرن الثالث مناطق تتنازعها رياح القلق والفوضى، فانتشرت فيها المعسكرات الرومانية والقلاع والحصون، وأخذت تعج بالقوات المحاربة، وعاد كل ذلك على الزراعة بأوخم العواقب، فنزل بها التلف والخراب، وأصاب الجفاف مساحات هائلة من الأراضى الزراعية، ولحق التدمير بالمزارع ومبانيها ومخازنها، حتى صار من الصعب على مالكى الأراضى الزراعية استصلاح ما تخرب منها والبدء من جديد، لقلة المال وارتفاع التكاليف، لاسيما محصول القمح. وبات من الواضح أنه منذ منتصف القرن الثالث، لم يعد لأسبانيا فائض من محاصيلها ترسله إلى روما، وصارت أرض مصر الخصبة بوراً، ولذلك اضطر الأمبراطور أوريليان Aurelien (٢٧٠ - ٢٧٥م) وخلفاؤه إلى اصدار قرارات الهدف منها تأمين مزارعين للحقول المهملة. كذلك أدت قلة المحاصيل الزراعية إلى استحالة مواجهة الضرائب الفادحة، التى وقع عبئها على صغار المزارعين والمستأجرين، فى الوقت الذى كان فيه كبار الملاك الزراعيين لا يلتزمون بدفع ما يستحق عليهم من ضرائب. وعندما عجز المزارع الصغير عن الوفاء بديونه فى موعدها، اضطر إلى رهن أرضه لكبار الملاك الزراعيين، وتحول فى نهاية الأمر إلى قن[١]، أو نزح إلى المدن للانغماس فى زحمتها، والانضمام إلى جموع الدهماء الذين ازدحمت بهم المدن الرومانية. وثمة بردية يرجع تاريخها إلى بداية القرن الثالث، وبالتحديد عام ٢٠٢م، توضح حالة الزراعة فى ولاية مصر الرومانية، ففيها يطلب أحد ثراة مدينة الاسكندرية من الأمبراطور أن يأذن له بإنشاء صندوق خيرى لإعانة المكلفين بالخدمات الإلزامية فى بعض القرى بإقليم أكسورونخوس (البهنسا) لأن هذه القرى على قوله «قد أصبحت من جراء الأعباء السنوية المرهقة الملقاة على عاتق أهلها، مهددة بالخراب، مما يعود بالضرر على الخزانة، ويؤدى إلى ترك أراضيك غير مزروعة»[٢].

---

(١) Robinson, op. cit., pp. 402 - 403.

(٢) بل (هـ. آيدرس)، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد على، (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١١٧.

وفى غضون القرن الثالث أيضاً، لم يعد الحرفيون أسعد حالاً من المزارعين والتجار، إذ أصاب الصناعات ما أصاب الزراعة والتجارة من خراب وكساد، ففقدت بلاد الغال وأراضى الراين الكثير من صناعاتها، واندثرت صناعة الزجاج فى كولون، وصناعة الفخار فى الأجزاء الغربية من الأمبراطورية(١).

الحالة الاجتماعية :

من المعروف أن المجتمع الرومانى كان مجتمعاً طبقياً، تفاوتت فيه الفوارق بشكل واضح وتناقض بالغ. فالطبقة العليا الثرية الأرستقراطية التى تألفت من العائلات السناتورية الرومانية وكبار الموظفين وأصحاب الملكيات الزراعية الواسعة عاشت فى المدن، غير عابئة بالنظم والقوانين، كان عليها دفع الضرائب للسلطات الرومانية أسوة ببقية الطبقات، ولكنها من الناحية العملية استطاعت التخلص أو التهرب من الكثير منها. كذلك لم تتأثر تلك الطبقة بالأزمات الاقتصادية التى ألمت بالامبراطورية فى القرن الثالث، إذ امتلك أفرادها الثروات الضخمة، وعاشوا فى قصورهم وسط أملاكهم الواسعة، يحيط بهم الخدم والعبيد، استأجر الكثير منهم حراساً خصوصيين - غالباً من الجرمان - لحمايتهم(٢). بيد أن اضطرابات الحياة السياسية فى ذلك القرن كان لابد أن تؤثر فى تلك الطبقة، فأخذت أعدادها تتناقص، ونفوذها يتضاءل وينكمش. ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الأباطرة الذين وصلوا إلى العرش الأمبراطورى، قاموا بقتل خصومهم السياسيين من أعضاء السناتو، واستبدلوا بهم رجالاً أقل كفاءة ومقدرة داخل مجلس السناتو، كما صادروا ممتلكات البعض منهم أحياناً. وإبان تلك الظروف قل ولاء أعضاء السناتو للحكومة الرومانية، وسرعان ما بدأت التقاليد القديمة التى حرصوا عليها فى الأيام الأولى للأمبراطورية فى

---

(١) Cary & Wilson, op. Cit., pp. 344 - 345.

(٢) Painter, op. cit., pp. 9 - 10.

الانهيار[١]، حتى أن رتبة السناتورية غدت فى القرن الرابع مجرد لقب شرفى يمن به الأمبراطور على من يشاء من أتباعه والمقربين إليه، وقد كان سخياً فى ذلك[٢].

أما الطبقة الوسطى القديمة، التى كانت عصب الحياة فى المجتمع الرومانى، وقامت بدورها الرائع فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة خلال القرنين الأول والثانى، فقد قدر لها أن تنهار تحت وطأة الكوارث الإقتصادية التى ألمت بالامبراطورية من ناحية، وتحت عبء المطالب الباهظة التى فرضت عليها من ناحية أخرى، وبعد أن كانت تلك الطبقة تؤلف الغالبية العظمى من صغار الملاك، انتهى مصيرها إلى الاضمحلال، وأخذت أعدادها فى النقصان تدريجيا، وانحدر أفرادها إلى حالة من البؤس تزيد قليلا عن حالة الأقنان الذين يعملون فى الضياع السينيورية. ومن المشاهد أن العديد من صغار الفلاحين الأحرار، آثروا التخلى عن أراضيهم لكبار الملاك الزراعيين بغية التخلص من أعباء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص، بعد أن طحنتهم متاعب القرن الثالث، وأصبحوا أقنانا Coloni وجب على كل قن Colonus لديه قطعة من الأرض يتولى زراعتها أن يتعهد بدفع إيجارها نقداً أو عينا أو خدمة، وليس من حقه مغادرة الأرض التى يقوم بزراعتها، بعد أن منعته قوانين الامبراطورية من ذلك[٣].

وإذا انتقلنا إلى طبقة العبيد التى كانت تمثل نسبة عظيمة من سكان إيطاليا، نرى أن ثمانين فى المائة من العمال فى الصناعة وفى تجارة الأشتات كانوا من العبيد، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية فى المصالح يؤديها «عبيد عموميون» Servi publici [٤]. وقد عمل العبيد فى ظروف صعبة سيئة، جعلت

(١) Downey (Glanville), The Late Roman Empire., (U.S.A., 1969), pp. 6-7.

(٢) إسحق عبيد تاوضروس، الأمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٤٢.

(٣) Downey, op. cit., p. 47.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، الطبعة الثانية، (القاهرة ١٩٧٣)، مجلد ٣، جـ ٢، ص ٢٣٩ - ٢٤٥.

حياتهم بائسة معذبة، ومما يدل على ذلك حالة أولئك العبيد الذين كانوا يعملون في طاحونة، فهم شاحبو الوجه، عرايا إلا مما يكاد يستر عورتهم، علقت أجراس في أقدامهم، وتخددت أجسادهم من جراء العلامات السوداء التى خلفتها ضربات السياط[١]. أما عبيد المنازل كانوا أنواعاً لاحصر لها، تنوعت أعمالهم. وقد لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة على يد سادتهم الذين اختلفت أهواؤهم ومشاربهم. فكانوا أحيانا يقتلون وأحيانا يضربون. ويمكننا ان نلمس المعاملة السيئة التى لقيها عبيد المنازل إذا علمنا أن أحد السادة الرومان كان يصر على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين، وكان يعاقب من يعطس منهم بالجلد، كما كان يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا ماضايقها اضطرابها في تصفيف شعرها[٢]. على أن متاعب العبيد أيام الامبراطورية أخذت تقل شيئا فشيئا إثر قبولهم أعضاء فى الأسر التى كانوا يخدمونها، يضاف إلى ذلك أن العبد كان بإمكانه الافلات من أغلال العبودية، وينال حريته عادة فى ست سنوات بفضل أمانته وتفانيه فى خدمة سيده. كما أن ضعف الحكومة الرومانية فى القرن الثالث، جعل فرار العبيد من سادتهم أمراً سهلاً ميسوراً.

ومن الملاحظ أن سكان الامبراطورية خلال القرنين الثانى والثالث قد نقص عددهم إلى حد كبير، بسبب المجاعات والأوبئة والطواعين التى انتشرت آنذاك .ومن أسباب النقص أيضا إعراض الرومان عن الزواج، بعد أن ساء سلوكهم وحادوا عن طريق الجادة، حتى أن المؤرخ أميانوس مارسيللينوس[٣]

(١) Bury (J.B.), A Hist. of the Roman Empire from its foundation to the death of Marcus Aurelius (27 B.C. - 180 A.D), (London, 1930), pp. 592 - 593.

(٢) Charlesworth, op. Cit., pp. 72 - 73.

(٣) ولد أميانوس فى أنطاكية لعائلة نبيلة من أصل يونانى، والتحق بالخدمة فى الجيش الرومانى تحت أمرة القائد أرسكينوس حاكم إقليم نصيبين. وقد رافق أميانوس الأمبراطور جيوليان المرتد (٣٦١ – ٣٦٣ م) فى حملاته ضد الجرمان وضد الفرس، وقد خدم أميانوس أيضاً عى عهد الإمبراطور جوفيان. وفى نهاية المطاف اعتزل أميانوس الجيش وسافر إلى روما، حيث بدأ فى كتابة تاريخ الدولة الرومانية باللغة اللاتينية، وتاريخه يعتبر مكملاً لكتاب المؤرخ الرومانى تاكيتوس. وأميانوس مؤرخ أمين واضح الفكر، نزيه الحكم وواسع الاطلاع، ويعطينا وصفاً رائعاً

Amianus Marcllinus (٣٢٥-٣٩١) يرى أن جميع المآسى التى تعرضت لها الامبراطورية، إنما ترجع إلى الفساد والتدهور الخلقى اللذين تغلغلا فى جوانبها(١). والحقيقة أن الرومان كانوا يميلون إلى الإكثار من النسل، ولكنهم خلال الفترة التى نتناولها، نظروا إلى الزواج على أنه مغامرة قصيرة الأجل، خالية من كل معنى روحى، من السهل التحلل منه؛ وكانت موانع الحمل واسعة الانتشار، ورغم أن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونها، إلا أن أرقى الأسر الرومانية كانت تلجأ إليها(٢).

الجيش :

صار من الصعب على الامبراطورية الرومانية الحفاظ على تماسك جيشها وقوته، بعد أن بلغت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة نهايتها المريرة. وليس من شك أن تلك الأوضاع انعكست بدورها على الجيش، ولعبت دوراً لايستهان به في تشويه بنائه. فبعد أن كان الجيش رمزاً لعظمة الامبراطورية، انعدم النظام فيه خلال الفترة التى نتحدث عنها، وتحول إلى أداة حربية لاتصلح للقيام بواجباتها، ومن ثم اضطر الأباطرة إلى الاعتماد على القبائل المتبربرة فى حراسة الحدود، تلك القبائل التى كان واجب الجيش الرومانى كبح جماحها والقضاء عليها، أما القوات الرومانية النظامية فقد تركز معظمها فى المدن للقيام بواجب الحراسة. وإذا عدنا إلى الوراء نجد أن الجيش الرومانى كان يتألف من المواطنين الأحرار أو المؤهلين لنيل حقوق المواطنة الرومانية، ولكن عندما عانت

= للمعارك التى خاضها بنفسه، كما يعطينا صورة لا بأس بها عن أحوال الأمبراطورية الرومانية فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية. أنظر : إسحق عبيد : من ألاريك إلى جستنيان، الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(١) Katz (S.), The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe., (New York, 1955), pp. 70 - 71.

إبراهيم طرخان : نهاية الأمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦م)، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، مجلد ٢٠، ديسمبر ١٩٥٨، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) ديورانت : قصة الحضارة، مجلد ٣، جـ ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

الامبراطورية من جراء غزوات البرابرة، وعجزت عن السيطرة على حدودها الواسعة المترامية الأطراف، لجأ الأباطرة إلى إحلال الجند المرتزقة – خاصة الجرمان – في ذلك الجيش[١]. ومما زاد الأمور تعقيداً أن الأباطرة أخذوا في إحالة الضباط النظاميين ممن ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية إلى الاستيداع، خشية تمردهم واستئثارهم بالسلطة، وتعيين ضباط محترفين من أبناء الشعوب الأجنبية، كل ماكانوا يصبون إليه المغامرة وتحقيق المطامع الشخصية على حساب الأهداف القومية للرومان، وقد أدى هذا إلى وصول بعض الانتهازيين إلى مناصب عسكرية عليا، بل وإلى قيادة الجيش الامبراطوري[٢]. وهنا نلاحظ أن الفرق المرتزقة من الجرمان وغيرهم من الشعوب الأجنبية، صارت عبئا على الامبراطورية، ظهر خطره واضحاً بعد إنتهاء حكم الامبراطور سبتميوس سفيروس سنة ٢١١م، إذ دأب خلفاء هذا الامبراطور على كسب ودهم، وإغداق الهبات عليهم، مما أدى إلى القضاء على هيبة الامبراطورية ومجدها الحربي[٣]، كما سنرى فيما بعد.

وبعد أن كان ضباط الجيش أداة لتنفيذ مشيئة الامبراطور والقوة التي يعتمد عليها في الأيام الأولى للامبراطورية، تغير الوضع في القرن الثالث، فصار بإمكان أي ضابط الوصول إلى عرش الامبراطورية، طالما كان بوسعه الاحتفاظ بإخلاص الفرق العسكرية التي أخذت تتحكم في مصير الأباطرة[٤] هذا بالإضافة إلى أن الحروب الأهلية التي اشتعل أوارها سنين طويلة، ونشرت الفوضى، استنفذت قوى الامبراطورية، وأخذ الامبراطور الذي يخرج منتصراً، يقيم نفوذه وسلطانه ويؤمن حياته على الدكتاتورية العسكرية، فيتملق الجنود، ويرفع أجورهم، ويمنحهم الأراضي، ويتحمل استبدادهم بالأهالي في الولايات، ولاريب أن الناس عانوا من تسلط الجنود ونهبهم وتخريبهم، وقد جاء التماس من

---

(١) Hay, op. Cit., p. 4.

(٢) علي الغمراوي: دراسات في تاريخ العصور الوسطى، جزءان (القاهرة ١٩٧٥)، جـ١ ص ٧٣–٧٥

(٣) إبراهيم العدوي : المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٦١)، ص ٢١.

(٤) Painter, op. Cit., p. 7.

آسيا الصغرى أرسل إلى روما «أننا نتعرض لأقسى أنواع الظلم والضغط على أيدى أولئك الذين من واجبهم حماية الناس، كالضباط والجنود وحكام المدينة»(١).

المنصب الامبراطورى (السلطة الامبراطورية) :

كان حكم أوكتافيانوس أوغسطس (٢٧ ق.م -١٤م) بداية لفترة جديدة فى التاريخ الرومانى، حددت مجرى التطور السياسى للامبراطورية فى العصور التالية. ذلك أنه لم يجمع كل السلطات فى يده كما فعل يوليوس قيصر، لحرصه على مراعاة التقاليد الدستورية القائمة، ولم يقبل أى مركز يكسبه سلطة أوتوقراطية (استبدادية). بيد أن السلطات الواسعة التى تمتع بها أوغسطس جعلته يفوق كافة الرومان فى النفوذ الذى كان قادرا على ممارسته فى الدولة، نظراً لمركزه السياسى، ومن هنا أطلق عليه لقب Princips أى المواطن الأول أو الرئيس. إذا كانت سلطة أوغسطس من الناحية الواقعية مطلقة، إلا أنه لم ينهج نهج يوليوس قيصر الذى انتهك الدستور معتمداً على القوات العسكرية التى كانت تحت أمرته، ولم يعط وزناً للنظم الجمهورية القديمة، ومشاعر الرومان، ولكنه-أى أوغسطس- أعاد بناء الدولة من نفس مواد بناء الجمهورية، بمعنى أنه غير نظام الحكم الجمهورى فى الجوهر وإن احتفظ به فى المظهر، حتى أنه بانتهاء حكمه بدأت تختفى المظاهر الجمهورية. وقد ارتكزت سلطة أوغسطس أو المواطن الأول على الارتباط الوثيق بعمل السناتو، الذى كان فى حاجة إلى مساعدته كى يتمكن من إدارة دفة العالم الرومانى، لقد كانت لاتزال هناك آثار ضئيلة من نظام الحكم الجمهورى، كتوزيع السلطات - على الأقل من ناحية الشكل - بين الامبراطور والسناتو، لكن الحكم تطور بعد ذلك بتولى دقلديانوس العرش ليصبح استبدادياً مطلقاً.

وإذا نتقلنا إلى القرن الثالث، نجد أن الامبراطورية قد تعرضت لغزوات الشعوب الجرمانية. ومرت بحالة من الفوضى اختفت خلالها سلطة الحكومة

(١) Barrow, The Romans., pp. 165 - 168.

المركزية تقريبا، حتى صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، ووصلت الأمور إلى حد بالغ الخطورة لم تعرفه روما منذ الحروب الأهلية فى القرن الأول قبل الميلاد. ويكفى دليلاً على ذلك أن فترة الخمسين عاماً الواقعة بين موت الامبراطور الكسندر سيفيروس Alexander Severus سنة ٢٣٥م واعتلاء دقلديانوس العرش سنة ٢٨٤م، التى يطلق عليها الباحثون المحدثون «الفوضى العسكرية» ،شهدت حروباً أهلية تعاقب خلالها أباطرة على العرش بطريقة غير طبيعية. أتى كثير منهم إلى الحكم بطريق العنف والاغتيال والالتواء، لم يكن لهم إلا الاسم فقط؛ وفى خلال تلك الفترة أيضا لم ينعم كرسى الامبراطورية بالاستقرار، فأطول مدة حكم بلغت سبع سنوات فى عهد ڤاليريان (٢٥٣ –٢٦٠م)، وثمانى سنوات خلال عهد ابنه جالينوس (٢٦٠–٢٦٨م)؛ ومما يثير الدهشة أن مالايقل عن ثلاثة وعشرين امبراطوراً ارتقوا عرش الامبراطورية فى تلك الفترة القصيرة، مات الكثير منهم بطريق العنف والاغتيال، والقليل منهم من مات على فراشه(١).

وفى نفس هذا القرن أخذت مشكلة التعاقب على العرش أو وراثة العرش تتفاقم، فقبل ذلك القرن لم تكن هناك عقبات تقف فى طريق وراثة المنصب الأمبراطورى، خاصة إذا خلف إمبراطور قدير ولداً يتميز بالمقدرة أو الكفاءة، أو إذا أتاحت الظروف لذلك الأمبراطور أن يتبنى زميلاً له جديراً بعرش الأمبراطورية. بيد أن أحوال المنصب الأمبراطورى قد أوضحت منذ القرن الثالث أن العصر الذهبى للأمبراطورية قد ولى إلى غير رجعة، وأن عصراً جديداً هو عصر الأباطرة العسكريين soldier - emperors قد بدأ. وفى ظل غياب السلطة المركزية، صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، وأضحى بالإمكان تنصيب امبراطور فى مكان ما غير روما مقر الحكومة الرومانية. وفى الوقت الذى كان فيه واجب الفرق العسكرية دفع الأخطار الخارجية عن الأمبراطورية، صار هدف قوادها الوصول إلى المنصب الأمبراطورى، وبلغ الأمر بتلك الفرق أن أضحى

---

(١) Downey, The Late Roman Empire., p. 4; Robinson, A Hist. of Rome., pp. 396-397.

باستطاعتها المناداة بقائد عادى خامل الذكر امبراطوراً فى إحدى الولايات، إدراكاً منها للمكاسب الوفيرة التى ستعود عليها عندما يصير ذلك القائد أمبراطوراً(١).

وفى ذلك الجو الذى صار فيه ارتقاء العرش الأمبراطورى أمراً تتحكم فيه أهواء الجيش، افتقد مجلس السناتو سلطاته تماماً وأهمل شأنه. وبعد أن كان ذلك المجلس تجسيداً حياً للارستقراطية يوماً ما صارت مهمته قاصرة على تأييد رغبات الأمبراطور الجالس على العرش، حتى أن الموافقة الشكلية التى كان يبديها السناتو فى تنصيب الأباطرة ضرب بها عرض الحائط، ولم تعد أمراً مرغوباً فيه آنذاك. وهنا نلاحظ أن السناتو كان يتمرد على وضعه الشائن أحياناً عندما يعتلى العرش امبراطور ضعيف، فيمارس نفوذاً ضئيلاً، ولكنه كان يقف موقف العاجز أمام قوة جيش زاحف على روما يريد تنصيب أحد القواد المتمردين على عرش الأمبراطورية. والحق أن المنصب الأمبراطورى إبان أزمة القرن الثالث أخذت أحواله تزداد سوءاً على مر الأيام، ففضلاً عن أنه انطوى على المخاطر، لم يعد يخلو عهد أى أمبراطور من أخطار خارجية تدفعه إلى التحرك، أو منافسين طامعين فى العرش من الداخل، وأحياناً الاثنين معاً(٢).

ومن المشاهد أن الأباطرة العسكريين قد أحاطوا مناصبهم بهالة من قدسية، فكما كان الحال فى ممالك الشرق منذ أقدم العصور، أضفى على الأمبراطور طابع الألوهية والقدسية، فكل ماله مساس بشخصه مستمد من مفاهيم دينية مقدسة يفرضها على الشعب الرومانى(٣). وبعد أن كان الأمبراطور فى أوائل عصر الأمبراطورية المواطن الأول أو الرئيس، أخذ حكمه الآن يميل إلى الاستبداد، وصارت بيده مقاليد الأمور، والحل والنهى، مادام يستمد سلطته

(١) Downey, op., cit., p. 7; Stephenson (C.), Medieval History. Europe from the second to the sixteenth century, Fourth edition, (U.S.A, 1962), p. 29.

(٢) Downey, op. cit., pp. 7 - 8.

(٣) نورمان بينز : الأمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، (القاهرة ١٩٥٧ م)، ص ٤ - ٥.

بمقتضى قوى إلهية. ولم يعد خافياً على الناس أن أوريليان عندما اعتلى عرش الأمبراطورية سنة ٢٧٠م، كان هو السيد والإله Dominus et deus. بهذه الصفات حدد أوريليان المعنى النهائى لمفهوم السلطة الأمبراطورية، التى سوف تتبلور على عهد دقلديانوس(١).

الأخطار الخارجية :

تعرضت الأمبراطورية الرومانية، فضلاً عن المشاكل الداخلية التى لازمتها، لأخطار خارجية على حدودها، من قبل أعدائها الجرمان المتبربرين والفرس. وهنا يجدر بنا أن نذكر أنه قبل انتهاء القرن الثانى، ازداد الضغط على حدود الأمبراطورية بتحرك القبائل الجرمانية المستقرة على جبهتى الراين والدانوب، وجرى قيامها بإغارات مكثفة وصلت داخل تلك الحدود. وحتى أواخر القرن الثانى أيضاً، كانت الجيوش الرومانية قادرة على حراسة الحدود ورد أى اعتداء يقع عليها بفضل أباطرة أمثال ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م) الذى قضى غالب فترة حكمه محارباً للجرمان، واستطاع فعلاً أن ينجح فى حماية جبهة الراين. ولكن الوضع سرعان ما تغير على الحدود في النصف الأول من القرن الثالث، ففى شمال منطقة الراين الأدنى دخلت قبائل الجرمان فى حلف عرف باسم الفرنجة، وفى الجنوب تأسس حلف من قبائل متباينة اتخذ اسم الأليمانى، وفى جنوب منطقة الدانوب الأدنى تألف حلف من قبائل القوط والماركومانى Marco-mani وغيرها، وكان أن اقتحمت تلك القبائل دفاعات الأمبراطورية وحصونها، سعياً وراء الطعام والأسلاب، فنهبت إقليم الغال المعروف بثرواته العظيمة، وتقدمت فى زحفها جنوباً حتى وصلت أسبانيا. كذلك تعرضت ولايات الدانوب للنهب، وواصلت القبائل المغيرة زحفها حتى استطاعت التوغل داخل شمال

---

(١) على الغمراوى : دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جـ ١ ص ٦٩ - ٧١؛ مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط، (القاهرة ١٩٧٧ م)، ص ١٩١.

إيطاليا(*). ولم يكف الأمبراطورية ما أحدثه الجرمان من متاعب لها، فعلى عهد الأمبراطور ڤاليريان (٢٥٣ – ٢٦٠م) دأب البربر والبدو الرحل على الإغارة على أملاك الأمبراطورية فى ولاية أفريقية الرومانية، ونهب مدنها ومزارعها(٢).

أما فى الشرق، فقد واجهت الأمبراطورية الرومانية خطراً جديداً أتى هذه المرة من دولة الفرس، ذات الحضارة العريقة التى تفوق حضارة روما. والحق أن الصراع بين الفرس والرومان صراع قديم، تناولته الأحداث التاريخية فى الشرق قبل حقبة الميلاد. فبعد وفاة الاسكندر أثناء إقامته فى بابل إثر حمى شديدة قضت عليه فى سنة ٣٢٣ ق.م بعد عدة أيام وهو فى الثانية والثلاثين من عمره، حدث صراع بين خلفائه، استطاع خلاله سلوقس Seleucus أحد قادة الاسكندر أن يضع يده على الجزء الأكبر من آسيا الغربية، حيث أسرة السلوقيين التى بدأ حكمها منذ عام ٣١٢ ق.م. وكانت فارس فى بداية حكم تلك الأسرة جزءاً من الدولة السلوقية، ولكن لم يمض طويل وقت حتى أخذت تلك الدولة فى الضعف والانحسار، الأمر الذى مكن أرشك فى بارثيا (خراسان الحالية) من أن يرفع لواء العصيان على السلوقيين فى عام ٢٥٦ ق.م، ويدخل فى حروب متعددة معهم، انتهت إلى التغلب عليهم وتأسيس دولة الأرشكيين أو البارثيين فى عام ٢٥٠ ق.م أو ٢٤٩ ق.م.(٣) على أن دولة الأرشكيين انقرضت فى عام ٢٤٤ م من جراء ضعفها المتزايد يوماً بعد يوم، وبعدها عن الاستقرار، فضلاً عن الحروب الأهلية التى اشتعل أوارها طمعاً فى العرش، وكثرة الثائرين ضدها. وكيفما كان الأمر، فقد انتقل الحكم فى فارس إلى الأسرة الساسانية، التى ظلت قائمة حتى الفتح

---

(١) Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley), Europe in the Middle Ages., (U.S.A., 1976), p. 22; Jones (A.H.M.), The Decline of the Ancient World, (London, 1975), pp. 11-12.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٢١.

(٣) حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساسانى، ترجمة د. محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعى محمد السباعى، ومراجعة د. يحيى الخشاب، (القاهرة ١٩٧٩)، ص ١٧٧ – ١٧٨.

العربى لفارس فى القرن السابع الميلادى. وفى عهد تلك الأسرة تغير الموقف الفارسى تغيراً واضحاً، ذلك أن ملوكها أوجدوا حكومة مركزية قوية، ستطاعت القضاء على الفتن، وإحياء الديانة الزرادشتية القديمة Zoroastrianism التى كان لها الفضل فى إيقاظ الروح القومية الفارسية، بعد أن تأثرت الأمبراطورية الفارسية بالحضارة اليونانية من حيث الدين واللغة، إثر مجىء الاسكندر الأكبر إلى فارس، وسرعان ما ادعى الساسانيون أنهم ورثة الأسرة الآخمينية (الهخمانشية) Achaemenid dynasty التى حكمت فارس قبل أن يزحف الاسكندر عليها، ونادوا بأحقيتهم فى جميع الولايات التى حكمها داريوس – الذى كان معاصراً للاسكندر – وهى مصر وسوريا وآسيا الصغرى، واعتزموا استردادها من الرومان(١).

ويبدو أن فارس كانت العدو القوى المنيع الذى فاق فى صلابته جميع القبائل الجرمانية وقتذاك (القرن الثالث)، ولذا صار على الامبراطورية الرومانية أن تواجه خطر ذلك العدو على جبهة الفرات، وبمعنى آخر لابد لها من تعزيز تلك الجبهة، رغم ما كانت تعانيه من نقص فى الرجال. وعلى أى حال، بدأ الاحتكاك بين الفريقين – الفرس والرومان – عندما قام أردشير الأول مؤسس الأسرة الساسانية بعبور نهر الفرات سنة ٢٢٨م، وعندئذ كتب إليه الأمبراطور الاسكندر سيفيروس (٢٢٢ – ٢٣٥م) رسالة يذكره فيها بالهزائم التى حاقت بالبارثيين على أيدى الأباطرة تراجان وسبتميوس سيفيروس، الأمر الذى أثار حفيظة أردشير الأول، فأختار أربعمائة من الرجال الأشداد ذوى القامات الفارعة فى كامل عدتهم وأسلحتهم، وأرسلهم إلى الامبراطور الرومانى، وأجابه بقوله : «ان ما يمتلكه الرومان فى آسيا هو إرث لى، ويجب على الرومان الاكتفاء بأوربا والانسحاب من آسيا!». ثم دارت المعارك بين الجانبين، انتهت إلى وقوع نصيبين وحران تحت سيطرة أردشير؛ وكان بإمكان أردشير أن يدخل سوريا منتصراً، ولكنه انحرف

---

(١) Jones, cp. cit., p. 12;

أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، (بيروت ١٩٥٥)، جـ١ ص ٤٥ – ٤٦.

عنها إلى أرمينية، فوقعت فى يده بعد مقاومة شديدة[١]. وواصل الفرس انتصاراتهم على الرومان، التى بلغت ذروتها عندما استطاع سابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢م) – ابن أردشير الأول – أن ينزل الهزيمة الساحقة بالامبراطور ڤاليريان عند الرها ويأسره فى عام ٢٦٠م، الأمر الذى زاد من عظمة الأسرة الساسانية فى نظر العالم آنذاك. ويروى أن سابور قيد يدى الأمبراطور الرومانى بالسلاسل، وأجبره على خدمته، فكان يضع قدميه على ظهره أثناء ركوبه، إلى أن أفنى ڤاليريان حياته أسيراً بائساً[٢]، ولم يعرف شئ عن مصيره. ولاريب أن هيبة روما فى الشرق الأدنى قد تأثرت من جراء تلك الكارثة، فلم تعد إليها كما كانت من قبل، كما أنه جرى انغماسها منذئذ فى حروب مع الجيوش الفارسية، بدا فيها تخاذلها واضحاً. ولعل أهم ما كشفت عنه تلك الحروب أن الأمبراطورية الرومانية لم يعد بوسعها المحافظة على حدودها التقليدية فى الشرق إلا بصعوبة بالغة[٣].

وأخيراً فى النصف الثانى من القرن الرابع، أراد الأمبراطور چوليان (٣٦١–٣٦٣م) أن يضع حداً للخطر الفارسى، فأتى بجيوشه إلى أنطاكية فى خريف عام ٣٦٢م، وبدأت الحرب بينه وبين الفرس فى العام التالى التى انتهت بانتصاره وفرار لجيش الفارسى. وعندئذ أخذ چوليان يتعقب الفرس المتقهقرين، فعبر على رأس جيوشه نهر الفرات، ثم نهر دجلة، ولكنه لاقى صعوبات بالغة، وكاد يلاقى الهزيمة من جراء الخطة التى اتبعها الفرس أثناء تقهقرهم، وأرادوا بها إحراق جميع لمحصولات فى كل جزء يخلونه من البلاد. ورغم ذلك تقدم الجيش الرومانى حتى طرق أبواب طيسفون (المدائن عاصمة فارس) Ctesiphon وضرب عليها الحصار، ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها لعجزه عن الحصول على المؤن. وعندئذ

---

(١) حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم، ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٦ – ٢٢٧؛ أسد رستم، الروم، ص ٤٧.

(٣) موس : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة د. السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٣ – ٢٥.

لجأ سابور الثانى إلى الحيلة، فاختار رجلين من أشراف الفرس، وجدع أنفيهما، وأمرهما أن يذهبا إلى چوليان ويدعيا أنهما فرا من عند الملك الفارسى لقسوته عليهما، ثم يقودانه إلى صحراء قاحلة، وفعل الرجلان ما أمرا به، وصدقهما چوليان، ولكنه لم يلبث بعد أن سار مسافة عشرين ميلاً حتى وجد نفسه فى صحراء جدباء، فأدرك الكمين الذى نصب له؛ وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله أصابته حربة، فسقط عن ظهر جواده، وأسلم الروح وهو فى الثانية والثلاثين من عمره(١).

ومن الأخطار الخارجية التى واجهتها الأمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث أيضاً، وأعطت دليلاً آخر على ضعفها، ظهور دولة تدمر Palmyra التى لم تكتف بالخروج على طاعة روما، بل أعلنت تحديها بالاستقلال عن نفوذها. وكان الرومان قد استولوا على تدمر فى القرن الأول الميلادى بعد أن أدركوا أهميتها التى إستمدتها من وقوعها على طريق القوافل التجارية بين موانى سوريا على البحر المتوسط والفرات من ناحية، وعلى تلك التى تصل شبه الجزيرة العربية بشمالى سوريا وأعالى العراق من ناحية أخرى. وقد بدأت تدمر تلعب دوراً مستقلاً عن الامبراطورية الرومانية عندما قام الملك الفارسى سابور الأول بالهجوم على أملاكها فى الشرق، واستدعى الأمر وجود الأمبراطور ڤاليريان كما ذكرنا من قبل. بعد ذلك استطاع أذينة بن السميدع الذى عرفه الرومان باسم سبتميوس أوديناثوس Septimius Odenathus حاكم تدمر أن يحوز ثقة الأمبراطور جالينوس Gallienus (٢٦٠ – ٢٦٨) – ابن ڤاليريان – بعد أن ساعده فى حروبه ضد فارس، ويبدو ذلك جلياً عندما تصدى أذينة لسابور أثناء رجوعه من آسيا الصغرى إلى فارس، وبدأت الحرب بينهما التى انتهت بانتصار أذينة وإذلال سابور، حتى أنه بلغ نهر دجلة بصعوبة بالغة. ويرجع إليه الفضل أيضاً فى استعادة المناطق الرومانية التى انتزعها الفرس فى أعالى العراق، بل ونقل ميدان الحرب بين الفرس والرومان إلى طيسفون عاصمة فارس. ونظير

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، مجلد ٤، جـ ١، ص ٤٢ – ٤٥.

الخدمات الجليلة التى أداها أذينة للجيش الرومانى، منحه جالينوس لقب أمبراطور Imperator أى زميلاً له، وأمر بوضع صورته مع صورة الأمبراطور على النقود التى أخذت غنيمة من الفرس، كما عهد إليه مهمة الإشراف على المنطقة الواقعة بين مصر وآسيا الصغرى، حدث ذلك فى الوقت الذى أطلق فيه أذينة على نفسه ملك تدمر وملك الملوك، رغم أنه كان لايزال تابعاً للأمبراطورية الرومانية[١]. وبعد أن مات أذينة فى سنة ٢٦٧م انتقلت السلطة إلى زوجته الجميلة الموهوبة زنوبيا (الزباء) Zenobia، التى تميزت بجلدها وثباتها وشجاعتها وبراعتها فى الحكم، بالاضافة إلى أنها جمعت كثيراً من أسباب الثقافة ورجاحة العقل، فأحاطت نفسها فى بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين. وهنا نلاحظ أنه بموت أذينة انتهت السلطة التى خولتها روما إياه وحده، بوصفها امتيازاً شخصياً له، ورفض الامبراطور جالينوس تجديد صلاحيتها لزنوبيا وابنها فـ بالاثوس Vaballathus، الأمر الذى بعث الاحتقار فى قلب زنوبيا للرومان و لامبراطور جميعاً. وفى غمرة هذه الأحداث التى كان الفرس والرومان مسرحاً لها، استطاعت زنوبيا أن تحافظ على تاج تدمر لإبنها، الذى عرف عنه أنه كان أداة طيعة فى أيدى أمه. على أى حال، اعتزمت زنوبيا، بعد أن أدركت ما وصلت إليه الأمبراطورية من ضعف، إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين، بمعنى أرادت زنوبيا أن تلعب دوراً مستقلاً فى الشرق. ومن أجل الوصول إلى هدفها، كرست كل ما لديها من نشاط دائب، ومواهب عظيمة، ومقدرة فذة. وفى عزم وتصميم بالغين أعلنت استقلالها عن روما فى عام ٢٧٢م، ولم تلبث أن سارت على رأس جيوشها، حتى وصلت مشارف مصر أهم مستودع يمد روما بالقمح، وتمكنت من فتحها والاستيلاء عليها فترة قصيرة. ولاريب أن مطامع زنوبيا وما وصلت إليه أثارت مخاوف الامبراطور أوريليان Aurelian الذى اعتلى عرش الأمبراطورية سنة ٢٧١م. فأخذ يفكر جدياً فى الاطاحة بزنوبيا، والقضاء على

---

(١) Sinnigen (William G.) & Boak (E.R.), A Hist. of Rome to A.D. 565. Six edition, (U.S.A., 1977), pp. 393-394.

محاولة الاستقلال التى قامت بها. وكان أن زحف على رأس قواته نحو الشرق فى العام التالى (٢٧٢م)، وتمكن من استرداد المناطق التى استولت عليها زنوبيا فى آسيا الصغرى، ثم واصل تقدمه حتى بلغ أنطاكية التى هجرها الأهالى قبل أن يقترب الأمبراطور منها، ولما وصل مدينة حمص التقى مع زنوبيا فى معركة عنيفة، انتهت إلى الحاق الهزيمة بزنوبيا وارتدادها إلى تدمر، حيث قبعت داخل أسوارها. ولكن الأمبراطور ما لبث أن تعقبها، وألقى حصاراً عنيفاً عى المدينة فى نفس العام، انتهى بسقوطها فى يده، وأسر زنوبيا أثناء محاولتها الفرار إلى فارس. وهكذا أخفقت زنوبيا فى تحقيق ما هدفت إليه، وقدر لها أن تسير مكبلة بالأغلال فى موكب أوريليان أثناء دخوله روما مكللاً بتاج النصر، وفى لعاصمة سمح لها بأن تقضى البقية الباقية من حياتها حرة إلى حد ما[١].

دقلديانوس : (٢٨٤ - ٣٠٥)

وهكذا عمت الفوضى الشاملة أرجاء الأمبراطورية فى القرن الثالث، فلم يعد الانسان آمناً على حياته أو معيشته، وتفشت الأوبئة والأمراض. وصار حدوث المجاعات أمراً مألوفاً، وتكررت غزوات الجرمان والبرابرة على الحدود، ناهبة المدن القديمة التى كانت مولداً ونبراساً للحضارة، وبعد أن كان أهالى تلك المدن ينعمون بالحياة الهادئة طوال عدة قرون، وينحصر جل تفكيرهم فى الحصول على الكماليات والسلع الترفيهية، صاروا عاجزين عن الوقوف أمام الخطر الجرمانى، ولم يعد بوسعهم أن يفعلوا شيئاً سوى تقوية تحصيناتهم داخل مدنهم، تاركين ضواحيها فريسة للسلب والضياع، فنهبت المزارع، وأتلفت المحاصيل، وتركت مساحات هائلة من الأراضى الزراعية الخصبة بوراً؛ وكان من الطبيعى أن تمتد يد الفوضى والخراب إلى الصناعة والتجارة، فانهارت تقاليدهما ونظمهما[٢].

---

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 394 - 395; Chapot (Victor), Le Monde Romain., (Paris, 1951), p. 81; Cary (M.) & Scullard (H.H.), A Hist. of Rome. Third edition, (London, 1975), pp. 513-514.

(٢) Robinson, op. cit., p. 401.

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة بجذورها فى أعماق الأمبراطورية، خاصة بعد انتهاء حكم أسرة سيڤيروس سنة ٢٣٥م، بدت الأمبراطورية فى حاجة ملحة إلى أباطرة ينتشلونها من وهدتها، ويعملون على إنقاذها مما تمكن بأرجائها من مظاهر الضعف والانحلال من ناحية، والأخطار الخارجية التى تهددتها من ناحية أخرى.

وقيض للأمبراطورية جندى رقيق الحال فلاح الأصل، من إقليم دلماشيا المطل على البحر الأدرياتى، هو الأمبراطور دقلديانوس، ليقوم بتدارك موقف الامبراطورية المتداعى، ومعالجة مشاكلها المتفاقمة. ولا نجافى الحق إذا قلنا أن دقلديانوس تمتع بشخصية قوية شجاعة أثارت الهيبة فى نفوس رعاياه، لاسيما بعد أن خلع على نفسه صفة الألوهية، وأوجد لنفسه مكاناً وسط الآلهة. وقد دفعه إلى ذلك اعتقاده أن عظمة الأمبراطور ستزداد قوة ونفوذاً، وحياته ستكون أكثر أمناً، لو أنه زج بنفسه وسط الآلهة؛ وكان أن جرت عبادته فى معظم أنحاء الأمبراطورية، خاصة فى الجزء الشرقى منها. ولم يكتف دقلديانوس بذلك، بل نقل عن ملوك الساسانيين فى فارس الذين أحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والقدسية والجلال، الكثير من تقاليدهم ومراسم احتفالاتهم وثيابهم الرسمية، فلم يعد يكثر من التنقل بين رعاياه، واختار العيش منعزلاً عن الأعين فى بلاط قائم على سلسلة طويلة من المراسم، وهكذا صار الأمبراطور حاكماً مقدساً مترفعاً، محجوباً عن شعبه، وجب على من يريد مقابلته أن ينطرح على الأرض أمامه صاغراً، ويقدم له فروض الطاعة والولاء ذليلاً؛ وصار يلبس عند ذاك تاجاً وحذاء قرمزياً وأثواباً ذات لون أرجوانى[1]. وفى نفس الوقت حرص دقلديانوس بعد ارتقائه عرش الأمبراطورية على إلغاء نظام الحكم الذى وضع أوغسطس قواعده، ملقيا به عرض الحائط، وشرع فى حكم الأمبراطورية حكماً استبدادياً مطلقاً لم تعهده من قبل، فله وحده حق التصرف المطلق فى الشئون المالية، وحق تشريع

---

(١) رنسيمان (ستيفن)، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على، (القاهرة ١٩٦١)، ص ١٦ – ١٧؛ بينز، الأمبراطورية البيزنطية، ص ٧٨ – ٧٩.

القوانين والاستئثار بالسلطة التشريعية، وهو القائد الأعلى للجيش، وسياسته هى التى تقرر مصير الملايين من رعاياه. أما مجلس السناتو، فعلى ضوء ما صار إليه الحال منذ بداية حكم دقلديانوس، لم يلبث أن تجرد تماماً من سلطته التشريعية، وضاعت امتيازاته الشكلية، وبذلك صار شبحاً من أشباح الماضى لامعنى له[١].

على أن دقلديانوس أخذ على عاتقه – منذ بداية حكمه – إصلاح شأن الأمبراطورية وتقويتها، واضعاً فى حسبانه ما ينبغى عليه انجازه. صحيح أنه ليس أول الأباطرة الذين تولدت فى نفوسهم رغبة الإصلاح، وصحيح أيضاً أن معظم أعماله كانت حلقة فى سلسلة الإصلاحات التى قام بها بعض الأباطرة المصلحين من قبله، إلا أنه كان من أشد المتمسكين بالعودة بالامبراطورية إلى سابق مجدها وعظمتها فى أيامها الأولى. ولمعالجة مشاكل الأمبراطورية الملحة، فكر دقلديانوس جدياً فى إعادة النظام والاستقرار إلى جميع نحاء الأمبراطورية، وإصلاح الشئون المالية، وإعادة تنظيم الجهاز الإدارى، ومضاعفة عدد الجيش.

وقد كان من المألوف قبل عهد دقلديانوس تركيز السلطة فى أيدى الأباطرة، غير أن ما تميزت به الأمبراطورية من مساحة شاسعة، جعلت من الصعب على فرد واحد أن يضطلع بأعبائها بكفاءة ومقدرة. وقد سبق لماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠م) أن عين رفيقا له Consort عند بداية حكمه، كما قسم فاليريان (٢٥٤ – ٢٦٠م) الأمبراطورية بينه وبين ابنه جالينوس. وهنا نلاحظ أن دقلديانوس فعل نفس الشىء، فبعد ثلاث سنوات من توليته منصب الأمبراطورية، عين ماكسيميان وهو قائد قدير من بانونيا، زميلاً أو قسيماً له بلقب «أوغسطس»[٢] Colleage (Co-emperor) or fello-Augustus، وترك له

(١) رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص٦٣؛ Painter, op. cit., p. 6; Stephenson, op. cit., p. 29.

(٢) أوغسطس لقب اشتهر به أوكتافيانوس (٢٧ ق.م – ١٤م) وحمله من بعده أباطرة روما، ومعناه العظيم أو الجليل.

مهمة حكم الجزء الغربى من الأمبراطورية، على حين احتفظ هو بحكم الجزء الشرقى. ويبدو أن دقلديانوس رأى أن ذلك التقسيم غير كاف للقيام بأعباء الأمبراطورية، إذ بعد ذلك بسبع سنوات (٢٩٣م) عين قنسطنطيوس وجاليريوس Galerius كمساعدين شركاء يحمل كل منهما لقب «قيصر» Caesar، وله مسئولية إقليمية خاصة، الأولى لمساعدة ماكسيميان فى الغرب، والأخير لمساعدة الأمبراطور فى الشرق. وهكذا قسمت الأمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية، يشتمل كل قسم منها على عدد من الولايات : فعهد إلى قنسطنطيوس بالغال وأسبانيا وبريطانيا، أما جاليريوس فقد احتفظ بمناطق الدانوب والبلقان، فى حين عهد إلى ماكسيميان بإيطاليا وأفريقية، أما دقلديانوس فقد احتفظ بمصر وتراقيا والولايات الآسيوية. وبمقتضى هذا النظام تقرر أن يستقل الأوغسطان بعد عشرين سنة من بداية مباشرة مهام منصبيهما، على أن يحل القيصران محلهما؛ وبذلك تتلافى الامبراطورية قيام أية مشاكل حول وراثة العرش من ناحية، والبعد عن ويلات الحروب الأهلية من ناحية أخرى. ومما يجدر ذكره أن دقلديانوس لم يفقد سلطته الامبراطورية بموجب ذلك التنظيم، إذ أن تلك السلطة بمعناها الحقيقى ظلت فى يده، فهو وحده قائد الجيش، والسيد الأعلى، له لقب الأمبراطورية ووظيفتها[١]. ثم رأى دقلديانوس أن ما أوجده من تنظيم إدارى للأمبراطورية بقسميها الشرقى والغربى، يقتضى قيام أربع مدن رئيسية كبرى تصلح مقراً للحكام الأربعة الكبار فى الأمبراطورية، وتلك المدن هى : تريف على نهر الراين بألمانيا أقام فيها قنسطنطيوس، وسرميوم (بلغراد الحالية) أقام فيها جاليريوس، وميلان بشمال إيطاليا – لأن روما لم تعد صالحة للبقاء عاصمة وحيدة للأمبراطورية الضخمة – أقام فيها ماكسيميان، ونيقوميديا (ازمت الحالية) Izmit على الشاطىء الآسيوى للبوسفور، وقد اختارها دقلديانوس لنفسه حتى يستطيع مراقبة مناطق الدانوب فى الشمال والأطراف الفارسية فى الشرق[٢].

---

(١) Robinson, op. cit., p. 404; Jones, op. cit., p. 29.

(٢) فشر: أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٣؛ دوسن (كريستوفر)، تكوين أوربا، ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة، د. سعيد عاشور، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢١.

والأمر الذى لا خلاف فيه أن نجاح ذلك التنظيم الذى أوجده دقديانوس يرجع بالدرجة الأولى إلى نفوذه الشخصى، وليس إلى جوهر التنظيم نفسه أو روحه، بدليل أنه عندما استقال دقلديانوس من منصبه فى عام ٣٠٥م، كان هو الذى أجبر زميله ماكسيميان على التقاعد مثله، فى الوقت الذى استغل فيه نفوذه الشخصى من أجل وصول قنسطنطيوس وجاليريوس إلى منصب الأوغسطين، واختيار قيصرين جديدين لهما. وهكذا بات من الواضح أن النظام الذى أسس دقلديانوس قواعده لم يأت بالفائدة المرجوة منه عند التطبيق، لاسيما أن من العيوب الجسيمة التى انطوى عليها عدم تذرع القيصر بالصبر حتى يصير أوغسطس، كما أن كل قائد فرقة عسكرية دفعته أطماعه وأحلامه – بعدئذ – لمحاولة الوصول إلى منصب الأوغسطس أو القيصر(١).

ويعتبر إصلاح النظم المالية وإيجاد نظام عادل لجمع الضرائب من أهم الواجبات الملحة، التى رأى دقلديانوس العناية بها. فبدأ بسك عملة نقدية سليمة لوقف التضخم والحد من ارتفاع الأسعار في عام ٢٩٦م، ورغم ما أحرزته تلك العملة من نجاح، إلا أن الأسعار ظلت مرتفعة، ولكى يتغلب على تلك المشكلة، بادر بإصدار مرسوم فى عام ٣٠١م – لايزال جزء منه باقياً حتى يومنا هذا – تضمن الحد الأقصى لأثمان السلع العادية والمنتجات التى تمثل الحاجات الأساسية للرعايا الرومان، مثل القمح والزبد والجبن واللحم والمصنوعات الجلدية والأقمشة. وفى المقابل عمل دقلديانوس على ضرورة تثبيت الحد الأقصى لمعدلات الأجور للعاملين فى سختلف المهن، مثل صناع السفن، وعمال الحرير والصوف، والنقاشين، ومدرسى المدارس الابتدائية والثانوية؛ وهنا نلاحظ أن دقلديانوس بذل قصارى جهده لسريان المرسوم، فصار الموت عقوبة مخالفيه. فيما يتعلق بتدهور الطبقات الدنيا من جراء الأوضاع الاقتصادية السيئة فى الأمبراطورية، بحيث صار من الصعب عليها مواجهة متطلبات الحكومة، وبلغ الأمر ذروته عندما اضطر الكثير من أفرادها إلى ترك مزارعهم وهجر تجارتهم، عمل دقلديانوس

---

(١) Painter, A Hist. of the Middle Ages., p. 4.

على مواجهة تلك المشكلة، بأن أصدر مرسوماً أجبر فيه الفلاحين وأصحاب المهن والحرفيين على قبول مبدأ الوراثة، بمعنى أن يتكفل الأبناء بمزاولة مهنة الآباء إلزاماً، سواء رغبوا فى ذلك أم كرهوا، وبذلك ارتبط صغار المزارعين بالأرض من جهة، وصارت الحرفة وراثية من جهة أخرى(١).

أما بالنسبة لنظام الضرائب، فبسبب ارتباك نظام السيولة النقدية فى الأمبراطورية لجأ دقلديانوس إلى فرض الضرائب العينية بدلاً من الضرائب النقدية، وألقى على عاتقى ملاك الأراضى وموظفى مجالس المدن مسئولية جمع الضرائب المقررة. والجدير بالذكر أن عضوية مجالس المدن كانت من الوظائف المرموقة التى يتطلع الكثير إلى الحصول عليها، ولكنها غدت ابتداء من عصر دقلديانوس عبئاً ثقيلاً، فأصحابها لم تقتصر مهمتهم على القيام بالأعمال المسندة إليهم فحسب، بل صاروا ضامنين للضريبة المقررة، والويل كل الويل إذا ثبت فشلهم فى جمعها من الأهالى، فعليهم أن يتحملوا دفع قيمتها، ويجرى إبعادهم بعد ذلك عن وظائفهم، حيث تقع عليهم وحدهم تبعة البحث عن وسائل أخرى لمعيشتهم(٢).

وإذا انتقلنا إلى الجيش، نلاحظ أن دقلديانوس اعتزم جعله الأداة الجديرة بالدفاع عن الامبراطورية وحدودها ضد أعدائها، ويتضح ذلك بجلاء فى حرصه على التمسك بفكرة خطوط الدفاع على الحدود، فبنى العديد من القلاع والتحصينات، والمواقع الدفاعية المنيعة حيث ترابط الحاميات بصفة دائمة، وشق الطرق الضخمة التى تسمح للجند بالتحرك السريع. ورغم أن بعض الفرق العسكرية كانت تشتمل - آنذاك - على أعداد من الجرمان فى أوربا، والبربر فى أفريقية، والعرب فى سوريا، إلا أن الغالبية العظمى تألفت من المواطنين الرومان المتمتعين بحقوق المواطنة الرومانية كاملة. وحرصاً من دقلديانوس على درء الأخطار الخارجية، استلزم الأمر زيادة أعداد الجيش، لذلك أصدر أوامره بجعل

(١) Robinson, A Hist. of Europe., pp. 466-467, Hay, The Medieval Centuries., p. 4

(٢) Barrow, op. cit., pp. 173.

الخدمة فى الجيش إلزامية، كما سمح – لأول مرة – لأبناء الجنود والمحاربين القدماء والمتطوعين بالانخراط فى سلك الجيش(١). ولم يلبث دقلديانوس – ومن بعده قنسطنطين – أن قام بإدخال بعض الاصلاحات على الجيش، فأعاد تنظيمه على أسس جديدة، بأن قسمه إلى فرعين واضحين : أحدهما للقيام بواجبه فى حراسة حدود الأمبراطورية عند نقاط معينة، ويتألف هذا الفرع من جند وراثيين يتناولون أجورهم أرضاً أطلق عليهم قوة الحدود Limitanei؛ أما الفرع الآخر، فكان بمثابة جيش مركزى احتياطى سريع الحركة هو جيش المعية أو الردفاء Comitatenses (الردفاء هم هيئة النبلاء المحاربين الملحقين بشخص الأمبراطور) تحت قيادة الأمبراطور، على أهبة الاستعداد للتحرك، لدفع الأخطار عن الأمبراطورية فى حينها دون إضاعة للوقت؛ أما الحرس البرايتورى (الأمبراطورى) الذى كان يلعب دوراً هاماً فى تنصيب الأباطرة وخلعهم، فقد ذهب إلى غير رجعة(٢).

قنسطنطين : (٣٠٦ – ٣٣٧)

تنازل دقلديانوس عن العرش فى عام ٣٠٥م، بعد أن بلغ الستين من عمره، ونال منه المرض، غير أن تنازله أعقبه نشوب حرب أهلية، أدت إلى انهيار نظام وراثة العرش الذى وضعه – حسبما أسلفنا – بهدف تجنب الأمبراطورية قيام الثورات وأخطار الحروب الأهلية. وقد استمرت الحروب الأهلية مشتعلة سبع عشرة سنة، حتى استطاع قنسطنطين الوصول إلى عرش الأمبراطورية بعد أن تغلب على منافسيه. وكان قنسطنطين الابن الأكبر لقنسطنطيوس، من أم كانت ساقية (نادلة) فى حانة تدعى هيلينا، ولد فى نيسوس (نيش فى يوغوسلافيا) Naissus فى ١٧ فبراير حوالى سنة ٢٨٠م، وعندما صار والده قيصرا ومسئولاً عن بريطانيا وغالة طبقاً للنظام الذى وضعه دقلديانوس، طلق زوجته هيلينا حتى

(١) Stephenson, op. Cit., p. 53; Charlesworth, The Roman Empire., p. 44.

(٢) Cary & Wilson, op. cit., pp. 339-340;
رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٦؛ بينز، الأمبراطورية البيزنطية، ص ١٧١ – ١٧٢.

يستطيع الزواج من ثيودورا ابنة ماكسيميان، وأرسل طفله قنسطنطين إلى بلاط دقلديانوس لينال قسطاً من التعليم[١]. ولما مات قنسطنطيوس بمدينة يورك ببريطانيا، نادت حاميتها الرومانية بابنه قنسطنطين أمبراطورا سنة ٣٠٦م، حسب الطريقة الوبيلة التى بذل دقلديانوس جهده، وقام باصلاحاته، ابتغاء الحيلولة دون وقوعها من بعده[٢]. وهكذا اندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت حتى سنة ٣١٠م حين كان هناك ثلاثة من الزعماء يتنازعون السلطة، كان هذ ك ليسنيوس Licinius فى الشرق، وماكسنتيوس فى إيطاليا، وقنسطنطين الذى ارتكزت قوته على بريطانيا وغالة. وقد برهن قنسطنطين على أنه قائد بالغ المهارة، يتميز بالشجاعة الفائقة، ففى سنة ٣١٢ زحف بقواته عبر جبال الألب إلى روما لمقابلة خصمه ماكسنتيوس الذى كان يتفوق عليه كثيراً فى عدد جنوده. وفى معركة جسر ملڤيان Milvian Bridge على مقربة من روما، دارت معركة هائلة، انتصر فيها قنسطنطين على منافسه وقتله، وجعله هذا النصر سيداً على الغرب؛ وتقاسم قنسطنطين حكم الامبراطورية مع ليسنيوس حاكم الشرق فيما بين عامى ٣١٢ و٣٢٤، وفى سنة ٣٢٤ هزم قنسطنطين خصمه الشرقى وخلعه عن عرشه، وبذلك توحدت الامبراطورية على يده مرة أخرى[٣].

ولا يخفى علينا أن قنسطنطين سار على خطة سلفه دقلديانوس فى الإصلاحات الإدارية والتنظيمات المالية والحربية، فقام بإتمام الأعمال التى بدأها ذلك الأمبراطور، حتى أنه صار من الصعب وضع خط فاصل بين أعمال هذين الأمبراطورين[٤] فمازالت العملة الرومانية علي عهد قنسطنطين فى تحسين مضطرد، بشكل أدى إلى إحياء الثقة واستقرار الوضع الاقتصادى فى الامبراطورية[٥]. ومما يؤكد نجاح قنسطنطين فى تثبيت العملة أنه أنشأ عملة

---

(١) Jones, The Decline of the Ancient World., p. 39.

(٢) فشر، أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٤.

(٣) كانتور : تاريخ العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٧٧)، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مراجعة د. على الغمراوى، جـ ١، ص ٧٦.

(٤) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٢٦.

(٥) Cary & Wilson, A Shorter Hist. of Rome., p. 342.

ذهبية جديدة تسمى الصوليدس (الصولدى) Solidus حافظت على وزنها ونقائها- غير منازع - حتى القرن الحادى عشر الميلادى[١]. وقد حقق السلام الذى ساد ربوع الأمبراطورية انتعاشاً فى أسواق الذهب والفضة، فكثر تداولهما، وأخذ الإنفاق طابع السخاء. ومما يدل على ذلك ما لجأ إليه ليسنيوس خلال الصراع الذى احتدم بينه وبين قنسطنطين حول الوصول إلى منصب الأمبراطور، فقد أعطى لمؤيديه هدايا تذكارية فى صورة صحاف من الذهب والفضة، كما قدم قنسطنطين لقواده ومؤيديه هدايا مماثلة لتأكيد إخلاصهم وولائهم. ومن المحتمل أن وفرة المعادن الثمينة آنذاك ترجع إلى إحياء العمل فى مناجم الذهب القديمة من جهة، واستغلال مناجم جديدة من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن جزءاً من انفاق قنسطنطين أتى من احتياطى الذهب والفضة الذى كدسه ليسنيوس، ثم آل إليه فى نهاية الأمر بعد أن تغلب عليه؛ ولم يكد ينفذ ذلك الاحتياطى، حتى قام قنسطنطين بمصادرة كنوز المعابد الوثنية القديمة، الأمر الذى هيأ له الحصول على كميات هائلة من سبائك الذهب والفضة[٢].

ولما كانت الأمبراطورية قد خلت من أصحاب المهن الحرفية المدربين من جراء متاعب القرن الثالث، فقد أولى قنسطنطين تلك المشكلة عنايته، وعمل على علاجها بأن أصدر مرسوماً سنة ٣٣٧م جاء فيه : «نحن الأمبراطور، نأمر المهنيين المسردين فى القائمة الملحقة، فى أية مدينة اختاروا الإقامة فيها، بأنهم سوف يعفون من جميع الخدمات العامة، شريطة أن يكرسوا أوقاتهم لمزاولة حرفهم، كى يصبحوا أكثر مهارة وخبرة، وعليهم تدريب أبنائهم. وأولئك المهنيون هم : المهندسون، وصانعو السقوف المصورة، والجصاصون، والنجارون، والأطباء، والحجارون، وصائغو الفضة، والبناءون، والبيطريون، والناسجون بالذهب، وبناءو الأرصفة، والرسامون، والنحاتون، والحدادون، وبناءو الرخام، وسباكو المعادن، وصباغو الثياب الأرجوانية، وصانعو الزجاج، والخزافون، والسمكريون،

---

(١) رنسيمان : الحضارة البيزنطية، ص ١٩.

(٢) Kent & Painter, Wealth of the Roman World., pp. 15 - 18.

والفراعين». ولاجدال أن ذلك المرسوم أثبت أن هناك عجزاً خطيراً فى جميع أنواع المهن الحرفية المدربة، كما أنه أظهر فى نفس الوقت كيف أن إنقاذ الأمبراطورية من أزمة القرن الثالث كان عملاً بطيئاً معقداً، تطلب جهوداً مضنية(١).

ولم ينس قنسطنطين أن يمد يد الإصلاح إلى الجانب العسكرى، فواصل سياسة سلفه فى تحصين الأمبراطورية وتقوية دعائمها، وأمر بتشييد سلسلة من الحصون المنيعة على امتداد جبهتى الراين والدانوب، وسواحل ويلز وكمبرلاند Cumberland فى بريطانيا؛ على أنه زاد من أعداد الجرمان فى الجيش زيادة هائلة، لميله إليهم، وتفضيلهم على غيرهم(٢).

وإذا كانت الاصلاحات التى قام بها قنسطنطين تعتبر إمتداداً لما قام به سلفه دقلديانوس كما سبق أن ذكرنا، فإن اعترافه بالمسيحية، وتأسيسه القسطنطينية وجعلها عاصمة للأمبراطورية، جعلا منه علامة بارزة فى مجرى التاريخ، ونقطة تحول هامة فى مسيرة الحضارة العالمية. إذ بفضل هاتين الخطوتين يمكن القول أن العالم ألقى خلفه رداء العصر القديم، وأخذ يوجه أنظاره نحو آفاق العصر الوسيط. وسوف نتناول موضوع اعتراف قنسطنطين بالمسيحية تحت عنوان مستقل، مكتفين الآن بتناول الحديث عن تأسيس القسطنطينية.

الواقع أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للأمبراطورية الرومانية يدل على شجاعة وجرأة بالغين، لأن روما كانت رمزاً لعظمة تلك الامبراطورية. ويبدو أن قنسطنطين أدرك بثاقب بصيرته أن روما لم تعد تصلح مقراً للأمبراطورية، لأنها من الناحية العسكرية بعيدة عن الحدود، يضاف إلى ذلك أنها تموج بأنصار الجمهورية. وغير خاف أن روما أخذت تزداد ضعفاً منذ وفاة

---

(١) Ibid., p. 18.

(٢) Cary & Wilson, op. cit., p. 339; Jones, op. cit., p. 47.

الأمبراطور أوكتافيانوس أوغسطس سنة ١٤م، ولذلك اقتنع دقلديانوس تماماً عندما أراد إحداث تغييرات جوهرية فى جسد الأمبراطورية، أن روما لم تعد تصلح مقراً مناسباً لإدارة الحكم، وجرى نقل عاصمته إلى نيقوميديا الراقعة فى تركيا الآسيوية[١]. وكذلك كان الأمر بالنسبة لقسطنطين، فبعد أن أمضى ثمانية عشر عاماً يجاهد من أجل الوصول إلى المنصب الأمبراطورى، أعلن فى عام ٣٢٤م عن قراره نقل العاصمة بعيداً عن روما؛ وقد كان أمامه العديد من المدن القديمة التى كان بإمكانه أن يختار إحداها عاصمة جديدة، مثل نيقوميديا التى اتخذها سلفه عاصمة له، وكان بوسعه أيضاً أن يختار إحدى المدن القديمة الشهيرة مثل الاسكندرية أو أنطاكية، وكلتاهما من المراكز التجارية العظيمة، أو أثينا المعروفة بتاريخها العريق، ولكنه آثر أن يبتعد عن كل ماله علاقة بالماضى[٢]. والحقيقة أن المسألة لم تكن مجرد التخلص من الارتباط العاطفى بالماضى، فهى أبعد من ذلك بكثير فى رأينا. إذ المعروف أن الأخطار الرئيسية التى تهدد الأمبراطورية جاءت من جبهتى الدانوب والفرات، وبمعنى آخر من ناحية البرابرة الضاربين على مقربة من ثغور الأمبراطورية وأطرافها شمال نهر الدانوب من ناحية، ومن قبل الفرس فيما وراء نهر الفرات من ناحية أخرى. ولمواجهة تلك الأخطار، كان لابد من الانتقال من روما إلى الشرق. ومن أجل ذلك نبتت فى ذهن دقلديانوس فكرة نقل مقر حكمه إلى نيقوميديا فى الجزء الشرقى من الأمبراطورية كما رأينا. كذلك اعتزم قنسطنطين اتخاذ مكان بالقرب من البوسفور يصلح مقراً للامبراطورية، حتى يتمكن من مراقبة جبهتى الدانوب والفرات والإشراف عليهما بنفسه، أما جبهة الراين فمن الممكن أن يعهد بمسئولية حمايتها إلى حاكم بلقب قيصر[٣].

وكيفما كان الأمر، فقد اختار قنسطنطين عاصمته الجديدة مكان بيزنطة القديمة الواقعة على البوسفور. وقد أسس بيزنطة جماعة من الملاحين من ميجارا

(١) Rice (Tamara Talbot), Byzantium, (London, 1969), p. 10.

(٢) Ibid., pp. 11-12.

(٣) Gwatkin & Dixie, "Constantine and his City", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 16

Megara عام ٦٥٧ ق. م. وقبل تأسيسها كانت جماعة أخرى من المستعمرين الميجاريين قد استقرت فى خلقدونية على شاطىء البوسفور الآسيوى المقابل. وقد لجأ أولئك الذين قدر لهم تأسيس بيزنطة إلى معبد دلفى ليشير عليهم بما يراه، فأشار عليهم أن يبنوا مدينتهم «فى الجهة المقابلة لمدينة العميان». وفى حيرة بالغة بدأ أولئك الرواد رحلتهم بحثاً عن الحظ حتى وصلوا إلى الموقع المجاور للقرن الذهبى، حيث يتقابل بحر مرمرة مع البوسفور، فجذبتهم روعته ومزاياه الجغرافية، واختاروه مكاناً لإقامة مدينتهم، وتحققوا أن أهل خلقدونية كانوا عمياناً حقاً حين أهملوا الموقع الأفضل فى الجانب الآخر، حيث فاتهم أن يدركوا ميزة تأسيس مدينة على الشاطىء الأوربى بدلاً من الآسيوى، ولذلك أدرك الميجاريون معنى عبارة الإله، وقرروا أن يبنوا مدينتهم على النتوء البارز فى المكان المعروف حالياً باستانبول، وأطلقوا عليه اسم بيزنطة Byzantium تكريماً لقائدهم بيزاس Bysas[1]. ومن الواضح أن موضع مدينة القسطنطينية يتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية، فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء القارتين آسيا وأوربا، إذ يحدها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبى من جهة الشمال، وبحر مرمرة فى الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثاً تحمى المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته الأسوار المنيعة التى أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، فقد سيطرت سيطرة تامة على كل تجارة البحر الأسود، فمنها تتجه طرق التجارة شمالاً إلى روسيا، وشرقاً إلى آسيا حيث تؤدى الطرق البرية إلى الهند والصين ووسط آسيا، وغرباً إلى وسط أوربا، وجنوباً إلى الشام ومصر وأفريقية. ومما يجدر ذكره أن القسطنطينية بفضل مزاياها التى تحدثنا عنها، ظلت قادرة على الوقوف فى وجه أعدائها والحفاظ على الامبراطورية الشرقية لمدة تربو على الألف عام[2].

---

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٣ – ٤

(٢) Rice, op. cit., pp. 13 - 14; Jones, op. cit., p. 50; Hay, op. cit., p. 14.

وبعد أن اتجه قنسطنطين بنظره تحو بيزنطة، قرر عام ٣٢٤م وضع أساس عاصمتها الجديدة عندها. وتروى الأسطورة المسيحية أن الأمبراطور وقد حمل حربة فى يده، تجول حول المدينة سائراً على قدميه ليضع حدودها، وقد صحبه فى تلك الجولة أفراد حاشيته الذين تعجبوا من اتساع المساحة التى حددها للعاصمة، فاجترأوا وسألوه : «عند أى مدى سوف يقف مولانا في تحديد مساحة العاصمة؟»، فأجابهم قائلاً : «عندما سيقف من هو سائر أمامى»، ويقصد بذلك الإشارة إلى وجود دليل خفى أو قوة إلاهية تلهمه وتقوده فى هذا العمل[١]. وقد جمع قنسطنطين ما يلزم لعملية البناء من العمال والمواد الأولية من كل مكان، وأحضر تحفاً وآثاراً وثنية رائعة جميعها من روما وآثينا والاسكندرية وإفسوس، زين بها شوارعها وميادينها. ومنحت المدينة الجديدة من الامتيازات المالية، كى تجتذب عدداً كبيراً من السكان، وجرى تشجيع الأثرياء على بناء منازلهم والاستقرار فيها بمنحهم الأراضى؛ واشتهرت المدينة بكثرة ما شيده قنسطنطين بها من كنائس، ولم يقدم داخل أسوارها أى قربان وثنى لأنها خضعت للدين الجديد وأصبحت وقفاً عليه، وبذلك أخذت الطابع المسيحى منذ البداية، ويبدو أن قنسطنطين أعطاها لقب «روما الجديدة»، وأخيراً احتفل بافتتاحها رسمياً فى ١١ مايو سنة ٣٣٠م، بعد أن استغرقت عملية البناء ست سنوات[٢].

ويعتبر تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم الإغريقى والعالم الرومانى، يبتعد فى خلاله كل منهما عن الآخر شيئاً فشيئاً، حتى غدت وحدة الأمبراطورية الرومانية مسألة بعيدة المنال. ذلك أنه على حين ظل الحكم الرومانى قائماً فى القسم الشرقى من الأمبراطورية كما تركه دقلديانوس وقنسطنطين، وعلى حين ظلت مظاهر ذلك الحكم قائمة، لم تتعرض لأية أخطار حتى استيلاء الفرنجة (الصليبيين) على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، آلت مصائر القسم الغربى من الأمبراطورية إلى نهاية مختلفة تماماً، إذ انهار تحت وطأة هجمات الجرمان

(١) أومان (شارل)، الأمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر، (القاهرة ١٩٥٣)، ص ١٧؛ عمر كمال توفيق، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٧ – ٢٨.

(٢) Jones, op. cit., p. 49.

بعد حوالى مائة وخمسين سنة كلها ضعف مطرد[١]. ومن المظاهر التى ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، أن المد الاقتصادى أخذ ينحسر عن الغرب الأوربى، فصارت الثروات فى أيدى تجار الأسكندرية وأنطاكية وغيرها، ويتضح مدى الخسارة الاقتصادية التى لحقت بمدينة روما فى حقيقة أن قمح مصر بدلاً من أن يرسل إليها، صار يرسل إلى القسطنطينية لإطعام شعبها[٢]. وآخر المظاهر التى ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، هو تسلل المؤثرات الشرقية فى نواحى الحكم والإدارة والآداب فى القسم الشرقى من الامبراطورية، ومن ثم سيطر الطابع الهللينستى على ذلك القسم، علي حين ظل الغرب الأوربى متمسكاً باللاتينية وتراثها. ولما كانت المؤثرات اليونانية أقوى من اللاتينية، فقد تابع الشرق تقدمه وازدهاره، فى الوقت الذى أخذ فيه الغرب يسير فى مضمار التخلف[٣]. وبذلك بدأت سمات العصور الوسطى تطل علي المجتمع الأوربى وتفرض نفسها عليه.

---

(١) فشر، أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ١١.

(٢) Baynes (Norman H.), Decay of the Western Power and its causes; in Universal Hist. of the World, ed. by J. A. Hammerton., Vol. 4., pp. 2230-2231.

(٣) ابراهيم العدوى، المجتمع الأوربى، ص ٤٣.